logo
Image not found or type unknown

Title	الأيام الصعبة في حياة نجيب محفوظ / جمال الغيطاني
Contained in	MIDÉO : Mélanges de l'Institut dominicain d'études orientales du Caire / Direction : Georges Shehata Anawati, (puis) Régis Morelon, (puis) Emilio Platti, (puis) Emmanuel Pisani, (puis) Dennis Halft
Volume	27 (2008)
pages	185-210
URL	https://ideo.diamondrda.org/manifestation/121948

AlKindi 4, Ideo Library - Cairo
Image not found or type unknown
This content downloaded from 18.191.102.217 on Fri, 19 Apr 2024 21:28:23 CEST

JOURS SOMBRES DANS LA VIE DE NAGUĪB MAḤFŪẒ

الأيام الصعبة في حياة نجيب محفوظ

par

Gamal al-GHITANI — جمال الغيطاني

يمكن اعتبار عام أربعة وتسعين من القرن الماضي علامة فارقة في حياة نجيب محفوظ، وفي علاقتنا به، ليس في مضمونها، ولكن في شكلها، والظروف المحيطة بها. لا أعتبر عام ثمانية وثمانين مماثلا. أعني السنة التي حصل فيها على نوبل. عندما أعلنت الجائزة يوم الخميس، ذهبت إلى البيت، كان عدد كبير من الصحفيين المصريين والعرب والأجانب أمام البيت الذي يقع في الطابق الأول من بيت يطل على النيل الصغير، الفرع الأضيق ناحية الجيزة. بعد لقائي بالسيدة زوجته التي كانت تواجه وضعا لم تعتده في حياتها التي كانت تمضي في هدوء، بعيدا عن الأضواء، وكان تردد المقربين جدا على البيت الصغير الذي تقيم فيه الأسرة منذ الخمسينيات. شقة صغيرة، اختير أثاثها بذوق رفيع، لم يتح لي دخولها قبل يوم نوبل إلا مرة واحدة عدت فيها الأستاذ أثناء مرض عابر منذ

سنوات. كانت المقاهي أماكن لقائنا منذ أن بدأت علاقتنا عام تسعة وخمسين. في ذلك اليوم، بعد ظهر الخميس الأكتوبري، كان الجميع يتساءلون عن المكان الذي قصده الأستاذ. لم أكلف نفسي عناء السؤال، خرجت من البيت قاصدا كازينو قصر النيل، وهناك رأيته. أقبلت عليه مهنئا، مرحبا، كان يجلس مع صحبه من الحرافيش القدامى، عادل كامل صديق عمره، والذي بدأ مسيرته الروائية معه في نفس المرحلة، وقدم إلى المكتبة العربية عملا جميلا «مليم الأكبر» ومسرحية «جلفدان هانم». ثم توقف عن الكتابة واتجه إلى عالم التجارة، أيضا الفنان أحمد مظهر — رحمه الله — والمخرج توفيق صالح. الثلاثة من أعضاء جماعة الحرافيش القدامى. يوم الخميس كان مخصصا في الأصل للقائين، الأول في مقهى عرابي بالعباسية مع أصدقاء الطفولة والشباب، في نهاية السبعينات أغلق المقهى وتم تقسيمه إلى متاجر، وفي نفس الوقت كان معظم أفراد شلة العباسية قد توالى رحيلهم، ومن امتد به الأجل حتى الآن لم يعد يخرج من بيته لمرض أو شيخوخة. مع بداية الثمانينات توقف الأستاذ عن الذهاب إلى مقهى عرابي بعد اختفاء المقهى نفسه. منذ أن سمح لي بالتردد على المقهى في منتصف الستينات، كان يمضي فيه ساعتين بالضبط، من السادسة إلى الثامنة. وعندما يحين وقت انصرافه، يمضي سيرا على الأقدام إلى كبابجي شهير قريب من ميدان الجيش، يكون الكيلو في انتظاره ملفوفا، ومن حلواني قريب يأخذ كيلو البسبوسة، يستقل عربة أجرة إلى الهرم حيث منزل الكاتب الساخر محمد عفيفي — رحمه الله — ومقر لقاء الحرافيش لأكثر من ثلاثة عقود. الطريف أن الأستاذ توقف عن إحضار الحلوى بعد اكتشافه إصابته بالسكر في بداية الستينات.

يوم الجمعة تنقل اللقاء بين أكثر من مكان، واستقر حتى السبعينات في مقهى ريش، ثم انتقل إلى كازينو قصر النيل، السبت للأسرة، والأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء للكتابة. في شهور الصيف كان الثلاثاء موعدا خاصة للقاءه في مقهى الفيشاوي، موعد لا يحضره إلا يوسف القعيد وكاتب هذه السطور. خلال الصيف يتوقف عن الكتابة، والسبب المعلن حساسية في العينين تبدأ مع الربيع.

من الصيف كان يقضي شهرا في الإسكندرية، وهناك كان له ندوته، هو أيضا المركز، يتحلق حوله أدباء الثغر، لكن يظل هو في الصدارة، في صدارة المقهى. توقف عن الذهاب إلى الإسكندرية منذ بداية التسعينات، عندما ضمر البصر، وبعد إجراء العملية الجراحية في لندن.

حتى عام أربعة وتسعين، حتى يوم الجمعة هذا، كان الأستاذ يمضي طبقا لنظامه المحفوظي الصارم الذي التزمه، لم يتغير، وإذا تغير موقع، أو مكان لقاء، فإنما يحدث ذلك لتغير في الظروف والواقع.

إلى أن حل ذلك اليوم الخطير، الذي وضع حدا لكل ما اعتاده الأستاذ، لسعيه بين الناس، لخروجه اليومي في الصباح الباكر، وسيره حتى مقهى في ميدان التحرير، مشيه الجميل الذي أتاح لي فرصة مصاحبته اليومية في الستينات، عندما كنت أعمل في مؤسسة مقرها الدقي، وكنت ألتقيه فوق كوبري الجلاء وأمشي بصحبته حتى كوبري قصر النيل. عاش الأستاذ بين الناس، يسعى بينهم، ويبادلهم الحب ويبادلونه، وعندما شنت ضده الحملات الصحفية التي مهدت المناخ ليوم الجمعة هذا، وظهرت ضده كتب ألفها فقهاء الظلام ضد «أولاد حارتنا»، رفض الحراسة. وقتها قال لي أنه لا يتخيل نفسه ماشيا في الشارع ومعه حارس، كان لديه إيمان عميق ويقين داخلي أن أذى لن يلحقه. مرة أومأ برأسه، قال لي: الأعمار بيد الله.

غير أنني كنت أتوجس خيفة، نتيجة تجاربي السابقة خلال الستينات، والمطارة، وتوقع الاعتقال، إذ أنني أنتمي إلى جيل فتح عينيه على الرعب، وانخرط في العمل السري ضد الأوضاع التي رآها كثيرون منا خاطئة، نتج عن هذا إحساس أمني حاد. استقرت لقاءاتنا منذ بداية التسعينات على الثلاثاء، وعندما أصبحت رئيسا لتحرير أخبار الأدب، وأصبح لي سيارة خاصة من دار أخبار اليوم يقودها زميل من السائقين، توليت مهمة صحبته من البيت.

في السادسة إلا خمس دقائق أنتظر، في السادسة تماما يخرج من باب العمارة، أتقدم إليه، أصحبه حتى يصل إلى العربة، أفتح الباب، يفضل الجلوس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق. ثم ننطلق إلى المكان الذي اعتدنا

اللقاء فيه، والذي استقر خلال التسعينات في مركب راس على شاطئ النيل، اسمه «فرح بوت» ومازال.

رغم أنني غير مسلح، ولو أنني مسلح فلا أجيد استخدام السلاح، إلا أنني كنت عند وصولي أمام البيت أمسح المكان ببصري، أتصور هجوما ما، إن انتظامه الشديد يسهل على من يرصده توقيت الهجوم. كنت أتوقع ذلك، أستشعره مع تصاعد أعمال العنف في المجتمع من الجماعات المتطرفة، والتي كانت في جوهرها حركات احتجاج على الفساد، والخلل، لكنها ضلت طريقها عن أهدافها الحقيقية لأسباب يطول شرحها.

بعد نشر صورة الشاب الذي غرس السكين في عنق الأستاذ عصر يوم الجمعة هذا، تذكرته. في مرة كنت أنتظرالأستاذ، كان الجو حارا. لفت نظري شاب يرتدي الجينز، يجلس تحت الشرفة المغطاة حيث يعيش الأستاذ في الطابق الأرضي، شرفة بعرض الشقة، زجاجها سميك، مسور بقضبان مزخرفة، وأضافت السيدة عطية الله رفيقة عمر الأستاذ نباتات شكلت حديقة صغيرة مبهجة تغطي الطابق كله.

تطلعت إلى الشاب الذي بادلني النظر الحاد، ثم تشاغل بتقطيعه ورق كان يحمله إلى قطع صغيرة، لم يُبْد رد فعل، بل استمر قابعا مكانه، فكرت. ربما يستظل من الحر، لكن صورته قفزت إلى ذهني بعد أسابيع عندما نُشرت، إنه نفس الشاب الذي تقدم من الأستاذ عصر ذلك الجمعة ليصافحه بيد وليغرس باليد الأخرى سكينا قديما، مقبضه مخلوع ومربوط بخيط دوبارة متين، طعنة وضعت حدا لحقبتين متمايزتين، مختلفتين تماما.

***

أعود إلى أوراقي الخاصة التي دونت فيها وقائع تلك الأيام من سنة أربعة وتسعين، بالتحديد الجمعة، الخامس عشر من أكتوبر. في هذا اليوم كنت ألتمس الراحة عقب عودتي أمس الخميس من رحلة إلى المغرب، كنت أرتب مكتبي الذي تغيبت عنه وأستمع إلى بعض التسجيلات الموسيقية الأندلسية التي اقتنيتها

من مدينة فاس العتيقة. رن جرس الهاتف، جاءني صوت الزميل والصديق مصطفى بكري: «هل علمت أنهم ضربوا نجيب محفوظ؟.. أرجوك تأكد من هذه الأخبار...»

أجبت بالنفي. طلبت منه أن يتصل بي بعد قليل، فوجئت، جمدت للحظة، لحظة كنت أتوقعها وأتمنى ألا تحل، يبدو أنني في مواجهتها الآن، ثمة ثوان قبل أن تبلغ الضربة مراكز الألم في المخ. سيطر عليّ هذا الحال بينما مثل أمامي الرجل الطيب، حضوره الأبوي، وصحبتي له، اتصلت بمنزله. أجابتني ابنته الصغيرة، قلت بصوت محايد وكأنني لا أقصد أمرا محددا وأقصد:

«خير... ما الأخبار؟»

أجابتني بألم وخشية من المجهول:

«لا أعرف ما يجرى الآن، بابا في غرفة العمليات، والنبي ادع له يا عمو...»

ثم قالت:

«ماما وأختي عنده.. هنا في مستشفى الشرطة جنبنا..».

نطقت جملا قصيرة استهدفت منها بث الطمأنينة، دعوت له بالنجاة. بدأت أتصرف، اتصلت بزملائي في مركز تحرير جريدة أخبار اليوم، كنت أول من ينبئهم بالخبر، اتصلت بصديقي يوسف القعيد، كان في منزله، قال إن أحد أصدقائه اتصل به مستفسرا، اتصلت بالصديق عماد العبودي المهندس ورجل الأعمال، كانت جلسة الثلاثاء محدودة وقتئذ، وكان عماد أحد أركانها، قال إنه سيمر على يوسف ويمران عليّ ثم نتجه إلى المستشفى. نزلت إلى الطريق، كنت في مواجهة الليل والخوف مما يجرى، ونشطت الذاكرة لتمطرني بدفق من اللحظات المولية، هذا حال أعرفه عندما يهددنا الواقع بفقد صديق، تبرق لحظات أعرفها، لحظات سمعت عنها.

انتظاري كل ثلاثاء أمام البيت، ما حدث اليوم والدكتور فتحي إلى جواره كان ممكنا حدوثه معي. إصغائي إليه، اقترابي من أذنه اليسرى التي مازالت حاسة السمع فيها ممكنة بمساعدة السماعة، رفعي الصوت، لحظات صمته، شرود

نظراته، سعيه في الطريق السادسة صباحا بجوار النيل الذي أحبه وأقام في عوامة بعد زواجه لمدة سنة، ثم سكن على مقربة منه، استقراره في مقهى ريش، مقهى جروبي، مقهى علي بابا، في هذه المقاهي قرأ الصحف، كتب برقيات العزاء أو التهاني، دوّن بعض الملاحظات، أمسيات مقهى عرابي، رائحة التنباك المنبعثة من النرجيلة التي تعلمت تدخينها منه ثم توقفت عنها، ضحكاته المجلجلة مع صحبه أصدقاء الطفولة من شلة العباسية، سعينا في حواري الجمالية، احترامي لحظات صحبته بمقاهيها العتيقة عندما يستعيد زمنه الخاص. لا أتكلم إلا إذا تحدث هو، محبة الناس له، مشيه بينهم، يرد التحية لهذا، يصافح ذاك، لا يرد أي إنسان، صبر عجيب، تواضع جم، سماحة لم أعرف مثيلا لها. لحظة تناوله الطعام كل ثلاثاء بصحبتنا، طعام الزهاد، قطعة جبن أبيض، شريحة طماطم، قرص طعمية، فقط لا غير.

ما لم أعرفه معه صباه في بيت القاضي، شعر ذقن الباشا، خناقات الفتوات، حب الحسين، لعبه في قبو قرمز، الثورة عام 1919، الثلاثينات، العصر الذهبي للقاهرة، الحرب العالمية الثانية، المخابئ، انتهاء عصر الفتوات، الغداء في العجاتي، الدهان، الكباب والكفتة، السهر في توفابيان، مقهى زقاق المدق، وزارة الأوقاف، فترة العمل في قبة الغوري، الثورة.

نجيب محفوظ، إنه عصر بأكمله مختزل في إنسان، عاش المجتمع المصري وعبر عنه طيلة سبعين عاما من الكتابة المتصلة، وهذه حالة فريدة في تاريخ الأدب والأدباء، كدت في ذلك اليوم القصي البعيد الآن وقد أدركت هول ما جرى وبدأت أستوعب أن أولول وأصرخ باكيا:

«يا أستاذي.. يا حبيبي»

عندما وصلنا إلى المستشفى الذي يقع بجوار البيت، على بعد ثلاثين مترا تقريبا، وهذا من لطف التدبير الإلهي وعنايته، كان قد مضى على تسديد الطعنة حوالي ساعتين، دخلنا إلى قاعة الانتظار القريبة من غرفة العمليات. كان — المرحوم — ثروت أباظة ينهنه كطفل. راح يردد:

"«نجيب.. نجيب.. معقول أن يؤذيه أحد.. أن يمسه أحد...»!

نرجوه الهدوء ونحن في حاجة إلى من يهدئنا، هناك في الطابق الثاني يرقد الأستاذ ممددا فوق طاولة العمليات، فريق من الجراحين المهرة يقودهم أهم جراح أوعية دموية في مصر، الدكتور أحمد سامح همام. مرة أخرى أوقن بتدخل العناية الإلهية.

المرة الأولى، لأن المسئول عن صحبة الأستاذ اليوم هو الدكتور فتحي هاشم، وهو طبيب بيطري، لكنه طبيب أولا وأخيرا. عندما ركب الأستاذ السيارة واستقر إلى جواره، تقدم ذلك الشاب منه، صافحه، ثم دفع بمطواة قرن غزال في رقبة الأستاذ وبدأ محاولة الذبح، كان يستهدف قطع الشريان السبائي الرئيسي موصل الدم إلى الدماغ والمخ، كما قال لنا في ما بعد.

«بعد أن صافحني شعرت بوحش من نار يطبق على رقبتي...».

ما أنقذ نجيب محفوظ شيخوخته، انحناؤه إلى الأمام بسبب السن، مرت المطواة بسبب ذلك قرب الشريان الرئيسي، في هذه اللحظة عندما بدأ اهتزاز العربة انتبه الدكتور فتحي هاشم إلى ما يجرى. صرخ:

«بتعمل إيه يا مجنون؟!»

قفز من السيارة، هنا ألقى الشاب بالمطواة، وبدأ الجري، تعقبه فتحي، لكنه آثر العودة إلى الأستاذ المصاب، كان الدم يتدفق كنافورة، بسرعة جلس مكانه، ضغط الجرح بيد، وبيد واحدة قاد العربة الصغيرة إلى الخلف قاصدا المستشفى، قطع الأمتار القليلة الفاصلة، وعندما وصل إلى البوابة الرئيسية هرع إلى الباب صارخا:

«افتحوا.. الأستاذ نجيب محفوظ، حاولوا...».

بسرعة فتح الباب، حتى هذه اللحظة كان الأستاذ واعيا، أنزلوه إلى نقالة متحركة، قبل أن يغيب وعيه قال:

«خدوا بالكم أنا عندي سكر...»

الحق أن التصرف جرى على أعلى مستوى، بعد تقدير سريع للموقف، اتصلت إدارة المستشفى بالدكتور أحمد سامح همام، وهنا يتدخل القدر... لم يكن المحمول معروفا في مصر وقتئذ، جرى الاتصال في وقت كان فيه الجراح

الشهير يقف أمام المصعد في الطابق الذي يسكنه متأهبا للمغادرة إلى دعوة عشاء. لحقوا به قبل ركوب المصعد، لبى على الفور، لم يستغرق وصوله إلا مسافة الطريق، ودخل إلى غرفة العمليات على الفور، وصل اللواء حسن الألفي وزيرالداخلية وقتئذ، والدكتور علي عبد الفتاح وزير الصحة وقتئذ، والدكتور ممدوح البلتاجي وزير السياحة وعدد من كبار المسئولين بمباحث أمن الدولة. مازلت أذكر الأنباء التي كانت تصلنا من غرفة العمليات.

«تم إيقاف النزيف.. كان الدم يتدفق مثل النافورة...».

«تم نقل ثمانية لترات من الدم.. أربعة عشر كيسا»

أمام المستشفى جرى تجمع من مثقفين وناس عاديين توافدوا إليه بعد سريان الخبر، وتطوع كثيرون بدمهم لإنقاذ الأستاذ. بعد أربع ساعات جاءنا النبأ:

«نجحت العملية.. ويجري نقل الأستاذ إلى غرفة الرعاية المركزة..»

بعد منتصف الليل، مشينا في طرقات المستشفى الذي عرف الهدوء بعد الساعات العصيبة. كنا أربعة، يوسف القعيد وعماد العبودي وممدوح الليثي. قطعنا الممرات الطويلة، لم نكن نعرف وجهتنا على وجه الدقة، أخيرا وصلنا إلى غرفة الرعاية المركزة التي يرقد فيها أكثر من مريض كان نائما على ظهره، لأول مرة في حياتي أراه بدون نظارة طبية، بدا منفعلا، صوته به رعشة وحشرجة، كان يصافح باليسرى، استعدت ما قاله الدكتور سامح همام عن تأثر العصب الواصل إلى اليد اليمنى، قال إنه اطمأن عندما رأى الأستاذ يحرك أطرافه، لكن الأمر سيحتاج وقتا.

أعود إلى أوراقي التي كتبتها في الأسبوع التالي فأجد ما نصه:

«اليوم صباح الأربعاء...

أفكر في يده اليمنى، في بطء حركتها. تلك اليد التي حفرت نهرا للإبداع العربي، اليد التي كتبت الثلاثية والحرافيش وأولاد حارتنا، أتأمل لون الجلد الغامق الذي لم أعرفه في اليد التي قبلتها مرارا، أفكر في رقاده، في أيامه بعد الشفاء، أثق أنه سيتكيف مع الظروف الجديدة، تماما كما تكيف مع ظروفه بعد أن ثقل السمع وكل البصر، مع علمي أنه لا يغير عاداته إلا بصعوبة شديدة..

أحلم الآن بتلك اللحظات التي أتعجلها، عندما أصحبه كعادتنا ونجوس خلال حواري القاهرة القديمة، نسعى خلال الزمن العتيق...»

لحظات عودته إلى الكتابة حلت بعد أربع سنوات من العلاج الطبيعي اليومي، عندما مال عليّ ليُسرَّ إليّ قائلا:

«اليوم تمكنت من الكتابة بدون أن أنزل عن السطر...»

خلال تلك السنوات الأربع التالية للحادث، رتب أوضاعه، ونتيجة إرادة داخلية تكيف مع الظروف الجديدة. ليس نتيجة الحادث فقط، ولكن نتيجة التقدم في العمر والوهن. لقد نالت الشيخوخة من بصره فلم يعد يستطيع القراءة. عرضنا عليه المساعدة، لكنه لم يحملنا من أمرنا نصبا. رتب مع رجل طيب مجيئه اليومي إليه في الصباح ليقرأ له لمدة ساعة أهم الأخبار في صحف الصباح، القومية والمعارضة، أما المقالات والنصوص الأدبية المهمة فيقرأها عليه الأصدقاء في جلساتنا الليلية والتي أصبح لها ترتيب خاص. بالنسبة لي اعتدت أن أقرأ له الشعر القديم والذي يحبه واعتاد أن يفتتح به القعدة «عشان تحلو»، أي قبل أن يكتب أو يقرأ. أقرأ له بصوت مرتفع ما أعجبني من شعر القدماء، وقد دونت كافة القصائد التي اتضح لي أنه يحفظها واعتبرتها بمثابة مختاراته.

أحيانا أقرأ عليه مقطوعات من النثر، ويلفت نظري ملامحه أثناء تركيزه للإصغاء، وقد يعلق في نهاية النص برأي ثاقب. إذا كان الزمن قد نال من حاستي السمع والبصر فإنه لم ينل من الذهن الذي مازال حادا، نافذا، أما الذاكرة فمدهشة.

أحيانا يثير أحدنا موضوعا ما، ويطلب رأيه، فيجيب بكلمة أو كلمتين عابرتين، على سبيل المثال، سألته عن رأيه في أحداث سبتمبر بعد عام تقريبا من وقوعها، فقال لي في البداية:

«وهل يحتاج الأمر إلى رأي؟»

ولما كررت عليه السؤال، قال:

«أنت شايف...».

سكتّ. انتقلنا إلى موضوعات أخرى، وإذا به بعد حوالي نصف ساعة يميل إلى الأمام. يشير بإصبعه، هنا نصغي كلنا، ندرك أنه سينطق ما يهمنا، ما يعبر عن رأيه، يقول:

«شوف، بالنسبة لسبتمبر، أظن أنه لم يقع حادث أضّر بعلاقات الشرق والغرب مثل هذا الحادث، الذين ارتكبوه أساءوا إلى الإسلام أبلغ إساءة، وسبقه سلوكيات الطالبان التي أساءت أيضا للإسلام وصورته، إننا بحاجة إلى جهد كبير لنعود إلى الوضع السابق على سبتمبر.»

يصمت قليلا ثم يقول:

«لا أظن أن الوضع سيعود كما كان.. مازلنا في بداية مرحلة لم تتحدد معالمها ولا ندري نهاياتها...»

أحيانا ما تثار مناقشات حول موضوعات أدبية، أو سياسية داخلية أو خارجية. يكفي أن يصغي ويستوعب لينطق بالحكمة، مازالت قدرته على توليد النكتة في ذروتها، وأسبوعيا يجعلنا نضحك من الأعماق بعد قفشة مفاجئة، مباغتة لا نتوقعها، والقفشة فن مصري دقيق ينتمي إلى زمن جميل عندما كانت المشاكل العامة أخف وطأة، وكانت الأوقات الجميلة تمضي مع الصحبة المقربة والدنيا صافية. نجيب محفوظ من أمهر ملوك القافية والقفشة، وكلا الفنين يعتمدان على سرعة البديهة والقدرة الحادة على السخرية.

بعد أن تسلم الشيك المليوني من إبراهيم المعلم، سكت قليلا ثم قال:

«تعرف أنا بافكر في إيه دلوقتي؟»

تطلعنا صامتين، قال:

«بافكر أهرب...»

وانفجرنا بالطبع ضاحكين. كانت أخبار الذين اقترضوا الملايين — وبعضهم المليارات — تنشر يوميا في الصحف، هربوا بأموال المودعين، أموال الغير، ودعابة محفوظ كم بدت نافذة، موحية، موجعة!

في مرة أخرى كنا نتحدث عن راقصة شهيرة بمناسبة تصريحها أنها تنوي التقاعد، بعد لحظة صمت قال:

«ابقي طلعها في الذخائر...»

الذخائر سلسلة أشرفت عليها وكانت تصدر عن هيئة قصور الثقافة، قدمت فيها نصوصا هامة من التراث العربي.

تتميز النكتة المحفوظية بالذكاء، والثقابة، الدقة وشحنة السخرية العالية، مجرد استعادة هيئته لحظة إلقائه النكتة أو توليدها أو نطقه القفشة يجعلني أبتسم، إن متابعة ملامحه أثناء الجلوس معه تمنحنا خريطة دقيقة واضحة للعواطف الإنسانية، دائما كنت أحترم صمته، قبل الحادث والتقدم في السن، كان يجلس مفرود القامة، متطلعا إلى فوق، على وجهه ذلك التعبير الذي يستدعي الوصف المصري المتلخص في كلمة واحدة بالغة الدلالة، عندما نقول عن إنسان إنه «طيب». يبدو سمحا، رقراقا، ذاهبا إلى بعيد وهو قريب، مع التقدم في العمر، ضمر الجسيد، انحنى قليلا، يطول صمته مستغرقا في ذاته. خلال جلستنا معه أحرص على ألا ندخل في أحاديث جانبية. عندما يشعر أن الذين معه انصرفوا عنه، ولا يستطيع الإصغاء إليهم، يتداخل في نفسه، يمضي إلى أزمنته الخاصة، عندئذ أبادر بسؤال، برواية خبر أو نادرة. الآن، يصغي الأستاذ معظم الأوقات، إما أنه يصغي إلى محدثه، أو إلى داخله. ذروة تدفقه عندما يروي ذكرياته عن المدينة، عن الحياة الأدبية، عن الأزمنة المنقضية.

أحاول أن أتذكر ملامحه غاضبة فلا أستطيع، ينفعل عندما يعرب عن رأي يعلنه أول مرة أو يتصور أنه مفاجئ لنا، خلافي، لعل تلك اللحظة من صيف عام سبعة وستين تجسد ما أقول، عندما بدأنا نلتقي في الفيشاوي، وكان المقهى القديم قائما في تلك الأيام، وكانت هزيمة يونيو المروعة ساخنة ما تزال. مال قليلا إلى الأمام وقال معربا عن رأيه: إذا كان ليس في استطاعتنا مواجهة إسرائيل عسكريا، فالصلح ضروري.

بالطبع تجادلنا. وظل ذلك موضع حواراتنا لسنوات وعندما أيد الصلح مع إسرائيل في السبعينات، كان يعبر عن موقفه الحقيقي. في العدد الخاص الذي أصدره عنه الأستاذ رجاء النقاش عام سبعين من القرن الماضي، قال الأستاذ أنه عندما يجلس للكتابة فإنه لا يعبأ بشيء، وفيما يتعلق بآرائه المبدئية فإنه لم يظهر

خلاف ما يبطن وليس لديه حسابات صغيرة، كثيرا ما اختلفت معه وأثبتت لي الأيام أنه كان أبعد نظرا، ربما لا يجنح إلى الإثارة في تصريحاته الصحفية، متزن في مواقفه التي تتعلق بصلته بالسلطة، سياسية كانت أو حكومية، ربما يتحفظ، لكنه لا يعلن خلاف ما يبطن، وإذا جلس للإبداع فإنه لا يلبي إلا صوته ونداء ضميره.

***

بعد الحادث عرضت عليه وعرض عليه المحبون تخصيص ساعة أو ساعتين يوميا لكي يملي علينا ما يرغب في كتابته، لكنه شكرنا معتذرا برقة، فالكتابة بالنسبة له أداء خاص جدا، يبقيه سرا باستمرار، فكيف يمكن لإنسان مهما كانت درجة القرب منه أن يشاركه أشد لحظات حياته خصوصية!؟ أربع سنوات استغرقها العلاج الطبيعي حتى لحظة إفضائه لي بقدرته على الالتزام بالسطر دون أن ينزل عنه. أي أن نجيب محفوظ تعلم الكتابة في حياته مرتين: الأولى في طفولته، والثانية في العقد التاسع... وتلك الأشق والأصعب، لكم نظرت إلى يده... هذه اليد التي كتبت رواياته وقصصه القصيرة وأضافت إلى الأدب العربي والإنساني، تلك اليد التي أصابتها الكراهية والتعصب والجهل. بعد محاولة اغتياله رأيت الشاب الذي لمحته يوما تحت النافذة. سألوه عبر التليفزيون عما إذا كان نادما على محاولته قتل نجيب محفوظ، فقال إنه غير نادم، وأنه لو سنحت له الفرصة سيقوم بذلك، وعندما سأله المذيع عما إذا كان قرأ شيئا له، قال إنه لم يقرأ له حرفا، لكن أميره أصدر فتوى بتكفير محفوظ، الحقيقة أن التكفير بدأ منذ ذلك التقرير الذي كتبه ثلاثة من المشايخ الكبار إلى الرئاسة في مستهل الستينات، ومنذ ذلك الحين صارت «أولاد حارتنا" ممنوعة في مصر، محرمة.. حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه يوم الجمعة الخامس عشر من أكتوبر عام أربعة وتسعين.

عندما بدأ يتقن الالتزام بالسطور، الكتابة، كانت أعصاب البصر قد وهنت، إذن.. كيف يستجيب الأستاذ للظروف الجديدة؟

بدات سلسلة الأحلام في الظهور على صفحات «نصف الدنيا»، نصوص شديدة التركيز، تمسك بناحيتي الشعر والنثر، إنه يكتبها أولا بدون مداد، في ذهنه، ثم يكتبها على الورق مغمض العينين، لا يمكنه القراءة، لكنه بإرادة قوية وصرامة يجسد ما في ذهنه على الورق كتابة محفوظية، أعُدُّها الأجمل، الخلاصة، مرحلة بدأت منذ أصداء السيرة الذاتية، وبلغت الذرى في أحلام فترة النقاهة، إنها نصوص من الشعر الذي يرتقي إلى مستوى الحكمة. تتداعى عندي أصداء من الإبداع الإنساني الشبيه، أشعار حافظ وحكايات سعدي الشيرازي، ونصوص الأمثال والحكمة، إنه القدرة على النفاذ إلى جوهر التجربة الإنسانية وجوهرالوجود.

***

منذ خروجنا أول مرة بعد تماثله للشفاء من الحادث في ديسمبر، كان الشتاء مكتملا. قصدنا هضبة الأهرام: يوسف القعيد، زكي سالم، والدكتور يحيي الرخاوي الذي أشرف على تنظيم أيام الأسبوع والمرحلة الأخيرة من علاجه، ثم أصبح حرفوشا أساسيا في حلقات الحرافيش. تناولنا الغداء يومئذ في فندق ميناهاوس، وكان الأستاذ تحت حراسة الشرطة، وضع جديد سوف نعتاده، بل سيصبح أفراد قوة الحراسة أصدقاء لنا، وكأنهم أسرة جديدة للأستاذ ولنا. وضع لم يَسْعَ إليه. وضع أنهى أيام السعي في شوارع المدينة التي عاشها ومنح بعض مناطقها الخلود. طوال عمره كان ضد المظاهر، البساطة بينها، لكن للضرورة أحكامها. انتهى زمن التجوال في دروب القاهرة القديمة وحواريها. كثيرا ما رأيته خلال الستينات والسبعينات يجول في موطنه الأول، حواري وشوارع الجمالية، كنت أحرص ألا أزعجه حتى لا أقطع تأملاته واستعادته المكان.

استأنفنا لقاءاتنا الثلاثية في مركب راس على النيل، النيل الذي عشقه وأحبه حرص على أن يكون قريبا منه، حتى وإن لم يره بالبصر، فإنما يراه بالبصيرة.

***

خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت أنتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتي إلى البيت أن أدون ما قيل، إما بنصه كما أتذكره، أو خلاصته، وأقدم لقراء العرب نصوص ما أطلقت عليه "المجالس المحفوظية". كما يضم القسم الثاني من الكتاب نص المجالس التي جرت في عام ثمانية وسبعين من القرن الماضي كل يوم اثنين على امتداد أربع شهور صيفية، وقد صدرت من قبل في كتاب "نجيب محفوظ يتذكر". أما القسم الثالث فيضم نصوصا تابعت خلالها محفوظا في القاهرة القديمة، ومجالس خاصة بأحداث معينة. والأقسام الثلاثة ترصد وتسجل معالم هذه الرفقة الممتدة على مدى أكثر من أربعة وأربعين عاما مع أديبنا الكبير أمد الله في عمره، لعلها تلقي الأضواء على عالمه وآراءه وأفكاره.